مجلة كلية الآداب
"دوريَّةٌ – أكاديميَّةٌ – علميَّةٌ – مُحَكَّمةٌ"
عدد (٤٠) مارس ٢٠١٦م ص ص: ١٠٩ - ١٢٤
جامعة سوهاج
كلية الآداب

الوظائف التَّدَاوُلِيَّة للعناصر الإشارية فى التحليل النحوى عند "أبى حيان" فى "البحر المحيط"

محمد محمود فراج حسانين (*)

مقدمة:

تُمثل العناصر الإشارية جزءً مهمًا من أجزاء الخطاب اللغوى، ومن خصائصها، أنَّها مُؤكدات، فهى « تفيد التأكيد والاختصار فى اللفظ؛ لإغنائها عن ذكر المشار إليه واستحضاره فى اللفظ. » (١) ولها بُعد اجتماعي كذلك، يتمثل فى المعرفة المشتركة بين المتكلم والسامع للمشار إليه « حتى فى استعمال أقل تعبير إشارة [ضمير، على سبيل المثال] تُمَثل شيئًا مشتركًا متقاسمًا، وهى بذلك تمثل قربًا اجتماعيًا. » (٢)

وجدير بالذكر أنَّ كل خطاب له خصائصه التى تميزه، وله مقامه الذى يناسبه، وتبعًا لذلك تتحدد إشارياته التى تناسبه، فإنَّ « تَرَدُّد القرائن الإشارية يختلف إذن من مرسل لآخر، ولكن يختلف أيضًا من نمط خطابى لآخر. » (٣)

وسيعالج هذه البحث، الوظائف التداولية للعناصر الإشارية عند " أبى حيان " فى " البحر المحيط "، ولذا كان من الأحرى البدء بتعريف " أبى حيان " وسِفْره الجليل " البحر المحيط " ثُمَّ تعريف الإشاراليات وأنواعها.

التعريف بالإمام "أبي حيان الأندلسى" وتفسيره البحر المحيط:

هو أثير الدين، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الأندلسي، الغرناطي، الجياني، الشهير بأبي حيان. (٤)ولد بمطخشارش، وهى مدينة من حاضرة غرناطة، فى آخر شوال سنة أربع وخمسين وستمائة (٦٥٤هـ). (٥) وبدأ حياته بدراسة القرآن الكريم وحفظه، حتى ألمَّ بالقراءات صحيحها وشاذها، وجال في بلاد المغرب، ثم قدم إلى مصر قبل سنة ثمانين وستمائة. (٦) وتُوفِّيَ " أبو حيان الأندلسى " « عشيّة يوم السبت الثامن والعشرين من صَفَر، سنة خمس وأربعين وسبعمائة (٧٤٥هـ) بمنزله بظاهر القاهرة، ودُفِنَ بمقابر الصوفية. » (٧)

أما البحر المحيط، فيقع هذا التفسير في ثمانية مجلدات كبار (٨)، ويتميز هذا التفسير، بأنه « تفسير رائع فذّ مختَّص، وموسوعة فى المسائل النحوية المتعلقة بالآيات القرآنية، فهو المرجع الأول لأهل العلم فى

(*) باحث دكتوراه – قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) تحليل الخطاب فى ضوء نظرية أحداث اللغة، للدكتور محمود عكاشة، ص ٢٣١.

(٢) التَّدَاوُلِيَّة، لجورج يول، ص ٤٩.

(٣) فعل القول من الذاتية فى اللغة، تأليف: ك. أويكيونى، ص ٩٩.

(٤) انظر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ٣٠٢/٤، وطبقات المفسرين, للداوودى ص٢٨٧، والأعلام, للزركلى ٧/ ١٥٢، وبغية الوعاة، للسيوطى ٢٨٠/١، وأعيان العصر وأعوان النصر للصفدى ٣٢٥/٥.

(٥) انظر: بغية الوعاة، للسيوطى ٢٨٠،/١ وطبقات المفسرين, للداوودى، ص٢٨٧، وأعيان العصر وأعوان النصر، للصفدى ٣٢٨/٥.

(٦) انظر: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلانى ٣٠٢/٤- ٣٠٣.

(٧) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكى ٢٧٩/٩، ونكت الهميان، للصفدى، ص٢٨٤، وأعيان العصر وأعوان النصر، للصفدى ٣٢٧/٥.

(٨) اعتمد الباحث على طبعة دار الكتب العلمية – بيروت، وتقع فى ثمانى مجلدات، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض.

تخصص وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم. » [١] وعلى الرغم من توسُّع " أبى حيان " فى الإعراب والمسائل النحوية، فى تفسيره، فإنه « مع ذلك لم يهمل نواحى التفسير الأخرى، فهو يورد أسباب النزول والقراءات، والناسخ والمنسوخ، ولا يهمل الأحكام الفقهية للآيات. »[٢]

مفهوم الإشاريات:

تُعد الإشاريات عنصرًا تداوليًّا ذا أهمية كبرى، فهى جزء أساسى فى تكوين بنية أى خطاب؛ وذلك لدورها الكبير في الإحالة إلى المعلومات « التى تتحدد من خلال العنصر اللغوى، والسياق الوجودى، أو الخارجى، ومن ثمَّ تمثل دراسة البعد الإشارى للعلامة اللغوية جزءًا من مقاصد الخطاب، فالإشارة فى: أنا، وأنت، وهنا، تفهم فى سياقها الخارجى، ولا تتحقق إلا من خلال الاستعمال. » [٣] ويُقصد بها « فعل يستعمل فيه متكلم، أو كاتب: صيغًا لغوية لتمكين مستمع، أو قارئ، تحديد شيء ما. » [٤]

ثانيًا: أنواع الإشاريات: تنقسم الإشاريات إلى أنواع عدة، هى:

١. إشاريات شخصية: ويُقصد بها « تلك الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده مثل: أنا، أو المتكلم ومعه غيره، مثل: نحن، والضمائر الدالة على المخاطب مفردًا، أو مثنى، أو جمعًا، مذكرًا أو مؤنثًا. » [٥]

٢. إشاريات موصولة: وهى « الإشارة بالاسم الموصول.. فهى ألفاظ كنائية لا تحمل دلالة خاصة، وكأنها جاءت تعويضًا عما تشير إليه، وهى أيضًا تقوم بالربط الاتساقى من خلال ذاتها. » [٦]

٣. إشاريات المكانية: وهى « عناصر إشارية تشير إلى مكان، يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان التكلم، أو مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع. » [٧]

٤. إشاريات زمانية: وهى كلمات « تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم، فزمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية. » [٨]

٥. إشاريات خطابية: وتعد « من خواص الخطاب، وتتمثل فى العبارات التى تذكر فى النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم. » [٩]

---

(١) التفسير ومناهج المفسرين، للدكتور جمال محمود الهوبى، للدكتور عصام العبد زهد، ص٢٠٠.
(٢) بحوث فى أصول التفسير ومناهجه، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومى، ص١٥٦.
(٣) النظرية البراجماتية (التَّدَاوُلِيَّة) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، للدكتور محمود عكاشة، ص٨٤.
(٤) التَّدَاوُلِيَّة، لجورج يول، ص ٣٩.
(٥) الاتجاه التَّدَاوُلِيّ والوظيفى فى الدرس اللغوى، للدكتورة نادية رمضان النجار، ص ٩٠، ٩١.
(٦) المرجع السابق، ص ٩٣.
(٧) المرجع السابق، ص ٩٢.
(٨) المرجع السابق، ص ٩١.
(٩)المرجع السابق، ص ٩٤.

الوظائف التَّدَاوُلِيَّة للعناصر الإشارية فى "البحر المحيط"

إنَّ التحليل التَّدَولِيّ للعناصر الإشارية – وخاصة الضميرية منها – ليثبت أنَّ هذه العناصر، تضطلع بالقيام بمجموعة من الوظائف التَّدَاوُلِيَّة فى النص، منها:

أولًا: الربط المحدد بالمقصدية السياقية:

تُعد الضمائر عند اللغويين قسمًا من أقسام الكنايات. (١) و« لئن كانت المضمرات من المبهمات المفتقرة إلى مُفسِّر، فإن هذا الإبهام يُتَصَور فيها قبل دخول التركيب، فإذا استُعملت أصحبت من أشد الأسماء تعيينًا، وأخذت قيمة الاسم الذى عوضته بها. » (٢)

ولا تظهر دلالة هذه الضمائر إلا فى وجود مقصدية سياقية، فالمتكلم هو الذى يقوم بتحديد مَرْجعية الضمير، عن طريق القصْد فى سياق محدد، وبناء على ذلك، فلا « يمكن معرفة مَرْجع الضمير قبل استعماله، كما أنَّه يختلف باختلاف شروط الحديث التى يخضع لها المتكلم فى نشاطه، سواء كان شفاهة أو كتابة. » (٣)

وفى البحر المحيط، حدَّد " أبو حيان " مَرْجعية كثير من العناصر الإشارية، فى إطار استعمالها فى السياق، مع مراعاة بيان « دلالة الوظيفة فى التركيب، ويقصد بها الدور الدلالى الذى أضافه مبنى الإشارة إلى سياقه وما تحمله من دلالة من خلال مقامه، وتأثير التركيب فيه على أساس من أنَّه أصبح وحده داخل الجملة يتأثر دلاليًا ويؤثر فى سياقه العام والخاص. » (٤) وقد كان لعمله هذا أثر كبير فى وصول المعنى الصحيح للمتلقى، مما أسهم فى نجاح الرسالة اللغوية المقدمة للمتلقى، والمتمثلة فى التحليل النحوى للنص القرآنى.

وقد أدَّى السياق دورًا بارزًا، فى تحديد مقصدية كثير من العناصر الإشارية، وخاصة الضمائر عند " أبى حيان " فى البحر المحيط، ومن أمثلة ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (٥) فقد اختلف اختلف المفسرون في ضمير المجرور في قوله: ﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا ﴾ على قولين:

- القول الأول: إنَّ ضمير المجرور في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا ﴾ عائد على أقرب مذكور وهو [النفس] الثانية. وهي النفس العاصية. وهذا القول اختاره طائفة من العلماء، منهم: " فَخْرُ الدين الرازى " الذي قال: « واعلم أنَّ الضميرَ فى قوله: ﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا ﴾ راجع إلى النفس الثانية العاصية وهى التى لا يؤخذ منها عدل. » (٦)

---

(١) انظر: دراسة فى قواعد النحو العربى فى ضوء علم اللغة الحديث، للدكتور حازم على كمال الدين، ص١٠٢.
(٢) دور الروابط فى اتساق وانسجام الحديث القدسى، لمحمد عرباوى، ص ٨٧.
(٣) تداولية المكون الخطابى فى السرد الأدبى، لكاهنة دحمون، ص ١٤٧، ١٤٨.
(٤) أنماط الإشارة ودلالة الوظيفة، للدكتور محمد عبد الرحمن محمد، ص ١٥٤.
(٥) سورة البقرة: ٢/ ٤٨.
(٦) مفاتيح الغيب، للرازى ٥٨/٣.

وجزم به " الطَّاهر ابن عَاشور " فى قوله: « وقوله: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ الضميران عائدان للنفس الثانية المجرورة بـــ[مِنْ] أى: لا يقبل من نفس شفاعة تأتى بها، ولا عدل تعتاض به؛ لأن المقصود الأصلى إبطال عقيدة تنصل المجرم من عقاب الله ما لم يشأ الله؛ ليكون الضمير فى قوله: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُون ﴾ راجعًا إلى مَرْجع الضميرين قبله. » (١)

واختاره " أبو حيان " فقال: « والضمير فى منها عائد على نفس المتأخرة، لأنها أقرب مذكور: أى لا يقبل من النفس المستشفعة شفاعة شافع. » (٢)

ويبدو لى أنَّ هذا الرأى الذى رَجَّحَه " أبو حيان " هو الأنسب والأصح؛ لأنَّ سياق الآية يدل عليه، كذلك لجريانه على الأصل، وهو عَوْد الضمير إلى أقرب مذكور، ولموافقته قوله تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُون ﴾ ولأنه المتبادر من قوله: ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾.

- القول الثانى: إنَّ الضمير عائد على النفس الأولى؛ لأنَّها المحدَّث عنها، وإنَّما ذُكرتِ الثانيةُ فضلةً. وهذه النفس هي النفس المؤمنة، والمعنى: إنَّ هذه النفسَ لو شفعتْ في نفسٍ عاصيةٍ، أو حاولت فِداءها، لمْ تُقبل منها تلك الشفاعة، ولم تُؤخذ منها تلك الفدية.

وقد رَجَّحَ هذا القول كلٌ من " الآلوسى "، و" الزمخشرى "، وفى هذا يقول " الآلوسى ": « وإمّا إلى الأولى؛ لأنها المحدَّث عنها، والثانية فضلة؛ ولأن المتبادر من نفى قبول الشفاعة أنها لو شفعت لم تقبل شفاعتها... وكأنه قيل: إنَّ النفسَ الأولى لا تقدر على استخلاص صاحبتِها من قضاءِ الواجباتِ وتداركِ التَّبِعاتِ؛ لأنَّها مشغولةٌ عنها بشأنِها، ثم إنْ قدرتْ على نَفْي ما كانَ بشفاعةٍ، لا يُقبل منها، وإن زادتْ عليه بأنْ ضمّتِ الفداءَ، فلا يُؤخذ مِنها، وإنْ حاولتِ الخلاصَ بالقهرِ والغلبةِ – وأنّى لها ذلك؟– فلا تتمكَّنُ منه.»(٣)

وقال " الزمخشرى ": « ويجوز أن يرجعَ إلى النَّفْس الأولى، على أنّها لو شفعت لها لم تُقبل شفاعتُها، كما لا تجزي عنها شيئًا، ولا أعطت عدلًا لم يؤخذ منها. » (٤)

فى حين يرى " السمين الحلبى " أنَّ الضمير الأول فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ يعود إلى النفس الأولى، والضمير الثانى فى ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ يعود إلى النفس الثانية، يقول " السمين الحلبى ": « ويجوز أن يعود الضمير الأول على الأولى وهى النفس الجازية، والثانى يعود على الثانية وهى المجزى عنها، وهذا مناسب. » (٥)

ويبدو لى أنَّ الرأى الثانى ضعيف، لِمَا فيه من تشتيتِ الضمائر، وتفرُّقها فيؤدي إلى الإخلال بالنظم، والإلباس على السامع.

وفى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٦) اختُلفَ في الضميرِ فى قوله [بينه] على قولين:

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور ٤٨٥/١.
(٢) البحر المحيط، لأبى حيان ٣٤٨/١.
(٣) روح المعانى، للآلوسى ٢٥٢/١.
(٤) الكشاف، الزمخشرى ٢٦٦/١.
(٥) الدر المصون، للسمين الحلبى ٣٣٨/١.
(٦) سورة آل عمران: ٣/ ٣٠.

- القول الأول: الضميرُ عائدٌ على السوء، لأنه جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ ﴾ وهو أقرب مذكور؛ ولأنَّ المعنى يقتضيه، فيكون المعنى على ذلك: تمنى الابتعاد عن السوء يوم القيامة.

وقد اختار هذا الرأى " الثعلبى "، فى قوله: « ﴿ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا ﴾: بين النفس وبينه: يعنى بين السوء.»[١] واختاره كذلك " أبو حيان "، فى قوله: " الضمير فى [بينه] عائدًا على ﴿ وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ ﴾. » [٢]

وهذا الرأى رَجَّحَه " السمين الحلبي " فى قوله: « والضمير فى [بينه] فيه وجهان، أحدهما – وهو الظاهر – عَوْده على ﴿ وَمَا عَمِلَتۡ ﴾ والأوْلى عَوْده إلى ما عملت من السوء لأنه أقرب مذكور. » [٣]

- القول الآخر: أنَّ الضمير فى [بينه] يعود على اليوم، وقد رَجَّحَ هذا الرأى "الزمخشري"، فقال: « والضمير فى [بينه] لليوم، أي: يومَ القيامة حين تجد كلُّ نفس خيرها وشرَّها حاضرين، تتمنى لو أنّ بينها وبين ذلك اليوم وهوله أمدًا بعيدًا. » [٤] وضعَّف " أبو حيان " رَأى " الزمخشرى "، فى قوله: « وأبْعدَ "الزّمخشرى" في عَوْده على اليوم؛ لأنَّ أحد القسمين اللذين أحْضِرا له في ذلك اليوم، هو الخير الذي عمله، ولا يطلب تباعد وقت إحضار الخير إلا بتجوّز إذا كان يشتمل على إحضار الخير والشّر، فتودُّ تباعده؛ لتسلم من الشّر ودعه لا يحصل له الخير، والأولى: عَوْده على ﴿ وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ ﴾ لأنَّه أقرب مذكور، لأنّ المعنى: أنَّ السوء يتمنَّى في ذلك اليوم التباعد منه، وإلى عطف ما عملت من سوء على ماعملت من خير. » [٥]

وقد عارض " الألوسى " رَأى " أبى حيان "، وانتصر لرأى " الزمخشرى "، فقال: « ﴿ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا ﴾ أى: بين ذلك اليوم ﴿ أَمَدَۢا بَعِيدٗا ﴾ وقيل: الضمير لِما عملت لقربه، ولأنَّ اليومَ أحْضِرَ فيه الخيرُ والشَّرُ، والمُتَمنَّى بُعد الشَّر، لا ما فيه مطلقًا، فلا يحسن إرجاع الضمير– اليوم – وإلى هذا ذهب في البحر، ورد بأنه أبلغ لأنه يودّ البعد بينه وبين اليوم مع ما فيه من الخير لئلا يرى ما فيه من السوء. » [٦]

ويبدو لى أنَّ الرأى الأول أرْجَحَ؛ لجريانه على الأصل الذى هو عَوْد الضمير إلى أقرب مذكور؛ يقول " أبو حيان " فى ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب: « فإذا تَقدَّم اسمان مستويان فى الإسناد، كان الضمير عائدًا على الأقرب، إلا إن دل دليل على أنه لغير الأقرب. » [٧] لأنَّ المعنى يقتضيه، فمن خلاله يتحقق التماسك الدلالى للآيات، ويستمر المعنى ولا ينقطع.

ومن أمثلة ذلك فى اسم الإشارة، ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ۝٣٥ ﴾ [٨] جاء العنصر الإشارى فى الآية الكريمة ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بصيغة

(١) الكشف والبيان، للثعلبى ٣/٥٠.
(٢) البحر المحيط، لأبى حيان ٢/٤٤٥.
(٣) الدر المصون، للسمين الحلبى ٣/١١٧.
(٤) الكشاف، للزمخشرى ١/٥٤٦.
(٥) البحر المحيط، لأبى حيان ٢/٤٤٥.
(٦) روح المعانى، للآلوسى ٣/١٢٦، ١٢٧.
(٧) ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب، لأبى حيان ٢/٩٤١.
(٨) سورة الدخان: ٤٤/ ٣٤، ٣٥.

بصيغة الجمع، ليشير إلى المشركين من قريش، الذين أنكروا البعث والحساب، وقد أجمع كثير من المفسرين على مَرْجعية العنصر الإشارى ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ إلى أولئك القرشيين المنكريين للبعث.

ومن هؤلاء المفسريين " البغوى " (ت٥١٠هـ)، فى قوله: « ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾، يعني مشركي مكة. » [١] و" الزمخشرى " (ت ٥٨٣هـ) الذى قال: « ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾: إشارة إلى كفار قريش. »[٢] و" القرطبى " (ت٦٧١هـ) فى قوله: « ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴾: يعنى كفار قريش. » [٣] و" ابن جزى " (ت٧٤١هـ) (ت٧٤١هـ) فى قوله: « ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾: يعنى كفار قريش. » [٤] و" ابن عادل " (ت٨٨٠هـ) الذى قال: « قوله: ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴾: يعنى مشركى مكة. » [٥]

أمَّا " أبو حيان " فقد كان أكثرهم دقة، إذ حدد المقصدية السياقية للعنصر الإشارى ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ فى الآية الكريمة، ولم يكتف بذكر ما يشير إليه العنصر الإشارى ﴿ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ وإنما استطرد إلى ذكر السياق الذى صاحب العنصر الإشارى، وهو سياق تحقير المشركين، قال "أبو حيان": « ﴿ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾: يعني قريشًا، وفي اسم الإشارة تحقير لهم. » [٦]

ثانيًا: تعزيز بنية التعدد المَرْجعى:

اتفق النحويون على أن الضمير يحتاج إلى مَرْجع يفسره، فـ « الضمير أصلًا إنما هو إحالة إلى مسمى آخر، يأتى فى الكلام، قبل أن يأتى الضمير إجبارًا حتى لا يحدث اللبس فى المعنى، فلا يجوز لنا أن نضمر قبل أن نظهر. » [٧] وَممَّا تَجدرُ الإِشَارة إليه أنَّ الضمير في العربية يفسره مَرْجعه [٨] فيشير إليه، إليه، وَيُطَابقه « والأصل فى هذا المفسر [المَرْجع] أن يكون متقدمًا عليه وجوبًا، ثم يأتى الضمير بعده مطابقًا له فى النوع والعدد، وقد يتأخر عنه لفظًا. »[٩]

إنَّ تحديد مَرْجعية الضمير « أمر ضرورى فى معرفة المعانى، وتوضيحها، والكشف عن حقائق الجمل والتراكيب. » [١٠] وقد يتعدد المَرْجع للضمير الواحد، ويكون السياق هو الحَكم الذى يلجأ إليه النحويون؛ لتحديد مَرْجعية الضمير فى النص، وقد أشار إلى هذا أستاذى الدكتور " حازم على كمال الدين "

---

(١) معالم التنزيل، للبغوى، ص ١١٧٧.
(٢) الكشاف، الزمخشرى ٤٧٣/٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى ١٢٥/١٩.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى الكلبى ٣٢٣/٢.
(٥) اللباب فى علوم الكتاب، لابن عادل ٣٢٦/١٧.
(٦) البحر المحيط، لأبى حيان ٣٨/٨.
(٧) القرائن النحوية اللفظية والاتساق النصى، للدكتور سليمان بوراس، ص ٣٠.
(٨) أي إن " الضمير يُفسره ما هو وارد قبله خلافا لضمير الشأن." انظر: الوظائف الإحالية لجملة الصلة في القــرآن الكريم، د. أشرف عبد البديع عبد الكريم: ٢١. فلابد للضمير من عائد يَعُود إليه ويُفسره " أمّا إذا وجد مُنفردًا فلا معنى له، فإذا قلت: (هو) ولم يكن داخل إطار جملة، فإن هذا لا يدل على شيء، إذ لابد من إحالة إلى سابق أو لاحق، توضح من هو؟. " انظر: البنية الدلالية والإحالية للضمائر، للدكتور أشرف عبد البديع عبد الكريم، ص ١٥.
(٩) قرينة المطابقة فى النحو العربى وتطبيقها فى القرآن الكريم – دراسة نظرية تطبيقية – للدكتور محمد بن صالح، ص ١٢٩.
(١٠) الأثر العقدى فى تعدد التوجيه الإعرابى لآيات القرآن الكريم، للدكتور محمد بن عبدالله، ص ١١٠.

فى سياق حديثه عن الضمائر، قال: إنَّ « القدماء لم يغفلوا جانب السياق فى دراسة كثير من الظواهر النحوية. » (١)

ومن هذه الظواهر، تحديد مَرْجعية الضمائر « فالنحاة قد اهتموا بالبحث عن الظاهر الذى يفسر المضمر، أى تحديد المَرْجع أو العنصر الإشارى الذى يحيل إليه الاسم المبهم، أو العنصر الإحالى. » (٢)

والتعدد المَرْجعى للضمير، يترتب عليه تعدد الرأى النحوى، والفقهى، والعقدى، وبناء على ذلك فقد « ظل تحديد مَرْجع الضمير ومفسره واحدًا من أوسع المسالك وأسهلها لتحكم المنطلقات العقدية فى النص القرآنى؛ لكونه لا يتوقف فى ضبطه على تلك المعايير التى رسمها النحويون، بل يعتمد هذا التحديد على قرائن من خارج النص. » (٣)

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾(٤) اختلف المفسرون فى تعيين مَرْجع الضمير [الهاء] فى الموضعين من قوله تعالى:﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ ﴿ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ وجاءت أقوالُهم على النّحو الآتي:

- القول الأول: الضمير يعود على [الجنّةِ] لأنَّ إبليس كانَ من سكانِها: ورَجَّحَ هذا القول " ابن جرير "، فى قوله: « يقول تعالى ذكره: فقال الله له: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ يعنى من الجنة. » (٥) واختاره " البغوي "، فقال: « قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ أى: من الجنة، وقيل: من السماء إلى الأرض. » (٦) واختاره أيضًا " أبو السعود " فى قوله: « أى: فاهبط من الجنة، والإضمار قبل ذكرها؛ لشهرةِ كونه من سكانها.»(٧).

ولكنَّ " أبا حيان " اكتفى بعرض الآراء ونَقْلِها، دون تَرْجيح رأى منها، يقول " أبو حيان ": « والضمير في منها لم يتقدّم له مفسر يعود عليه، فقيل: يعود على الجنة، وكان إبليس من سكانها، وقال ابن عباس: كانوا في جنة عدن لا في جنة الخلد وخلق آدم من جنة عدن. » (٨)

- القول الثانى: أنَّ الضمير عائدٌ على [السّماء]: وهذا الرأى اختاره "الزمخشـــــــــــري"، فى قوله: « ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾: من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكةِ، إلى الأرض الّتي هي مقرُّ العاصين المتكبِّرين من الثَّقلين. » (٩) ونقل " أبو حيان " هذا الرأى أيضًا، فقال: « وقيل: يعود على السماء. » (١٠)

---

(١) انظر: دراسة فى قواعد النحو العربى فى ضوء علم اللغة الحديث، للدكتور حازم على كمال الدين، ص ٩.
(٢) الإحالة فى ضوء لسانيات النص وعلم التفسير، للزهرة توهامى، ص ٨٨.
(٣) الأثر العقدى فى تعدد التوجيه الإعرابى لآيات القرآن الكريم، للدكتور محمد بن عبدالله، ص ١٤٠٤.
(٤) سورة الأعراف: ٧/ ١٣.
(٥) جامع البيان، لابن جرير الطبرى ٣٢٩/١٢.
(٦) معالم التنزيل، للبغوى، ص ٤٥٧.
(٧) تفسير أبى السعود ٣٢٨/٢، ٣٢٩.
(٨) البحر المحيط، لأبى حيان ٢٧٤/٤.
(٩) الكشاف، الزمخشرى ٤٢٦/٢.
(١٠) البحر المحيط، لأبى حيان ٢٧٤/٤.

ورَجَّحَه " الواحدي " كذلك فى قوله: « قوله تعالى: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ أى: انزل من السماء.» [١] واختاره كذلك " الشوكاني " أيضًا، فقال: « ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾: أى اهبط من السماء التى هى محل المطيعين، الذين لا يعصون الله فيما أمرهم، إلى الأرض التى هى مقر من يعصى ويطيع. » [٢]

- القول الثالث: الضميرُ عائدٌ على [الأرض] فكأنَّه كانَ له ملْكُها، فأمرَهُ – عزَّ وجلَّ – أنْ يهبط منها. وهذا الرأى ضعَّفه " أبو حيان "، فقال: « وقيل: يعود على الأرض فكأنه كان له ملكها أمره أن يهبط منها إلى جزائر البحار، فسلطانه فيها فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق يخاف فيها، حتى يخرج منها وهذا يحتاج إلى صحة نقل. » [٣]
- القول الرابع: أن الضمير يعود على المدينةِ التي كان فيها، أي: فاخرج من المدينةِ التي أنت فيها. وهذا الوجه نقله " أبو حيان "، وقال فيه: « وقيل: عائد على المدينة التي كان فيها.. ويحتاج إلى تصحيح نقل.» [٤]
- القول الخامس: عَوْد الضميرُ على صورة إبليس التي كان فيها. وذكر هذا الرأى " أبو حيان "، فقال: « وقيل: يعود على صورته التي كان فيها؛ لأنه افتخر أنه من النار فشوّهت صورته بالإظلام وزوال إشراقه. » [٥]

ووصفه " الشوكاني " بأنَّه من التَّفاسير الباطلة، فقال: « ومن التفاسير الباطـــــلة ما قيل إن معنى ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا ﴾ أى: اخرج من صورتك النارية التى افتخرت بها صورة مظلمة مشوهة. » [٦]

وفى هذا السياق، ذكر " أبو حيان " آراء أخرى كثيرة. [٧] ولكنه اكتفى بعرضها فحسب، دون تَرْجيح أى منها؛ إذ قد يصح عنده أكثر من رأى، فيكتفى بعرض الآراء للمتلقى، ومن ثمَّ يختار المتلقى منها ما يراه مناسبًا، وهذا يؤكد أنَّ وظيفة الضمير فى النص هنا تعزيز بنية التعدد المَرْجعى.

والحقُّ إنَّ منهج " أبى حيان " صائبٌ، فى كثير من الأحيان، خاصة فى المواضع التى يحتمل فيها تأويل الضمير أكثر من وجه، إلا أنَّه يبدو لى أنَّ الرأى الراجح فى هذه الآية، هو الرأى الأول، والذى يعود الضمير فيه على [الجنّةِ] لدلالةِ المقام عليها، مع شهرةِ كَوْنِ إبليس من سكانها.

ومن أمثلة تعزيز بنية التعدد المَرْجعى فى أسماء الإشارة، ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾ [٨] فإن " أبا حيان " لم يُحدد دلالة العنصر الإشارى ﴿ هَٰذَا ﴾ فى الآية الكريمة، الكريمة، وذلك لإمكانية تعدد مَرْجعيته، فيجوز أن يعود اسم الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ على أكثر من شئ، وكل هذه الأشياء فى التوحيد، يقول " أبو حيان ": « والإشارة بهذا إلى الإسلام، أو القرآن، أو ما ورد في هذه

(١) الوسيط فى تفسير القرآن المجيد، للواحدى ٣٥٤/٢.
(٢) فتح القدير، للشوكانى، ص ٤٦٦.
(٣) البحر المحيط، لأبى حيان ٢٧٤/٤.
(٤) المصدر السابق نفسه ٢٧٤/٤.
(٥)البحر المحيط، لأبى حيان ٢٧٤/٤.
(٦) فتح القدير، للشوكانى، ص ٤٦٦.
(٧) انظر: البحر المحيط، لأبى حيان ٢٧٤/٤.
(٨) سورة الأنعام: ١٥/٦.

السورة لأنها كلها في التوحيد، وأدلة النبوّة، وإثبات الدين، وإلى هذه الآيات التي أعقبتها هذه الآية؛ لأنها المحكمات التي لم تنسخ في ملة من الملل أقوال أربعة. » [١] فى حين يرى الدكتور " عمر محمد عونى " أنَّ العنصر الإشارى ﴿ هَـٰذَا ﴾ فى الآية الكريمة، قد أفاد عدة دلالات [٢] منها:

- تحديد الصراط المستقيم وتخصيصه.
- حثّ المخاطب على ترك السبل الأخرى.
- دلالة القرب.
- البيان والإيضاح.
- العناية والاهتمام بالمشار إليه.

ثالثًا: توجيه الخطاب نحو سياق الحال [المقام]:

من أهم الوظائف التَّدَاوُلِيَّة للضمائر، إحالتها الخارجية [المقامية] على عناصر خارج النص، وهذه الإحالة الخارجية « هى ما كان فيها المحال إليه غير متضمن داخل النص، وإنَّما يتوصل إليه من المقام/سياق الكلام... وهذا النوع من الإحالة غير مرتبط نحويا بالنص. » [٣] والإحالة الخارجية يشير فيها المتحدث إلى « شَيء غَير مَوجود في النص... وعَلاقة هذه الإحالة بالنص عَلاقة ارتباط لا عَلاقة تَنافر؛ لأنَّ الذي يعين على تفسيرها هو السياق. » [٤]

وتَتْكَشِفُ دلالة الضمائر « بحسب السياق الذى توجد فيه. » [٥] ولذلك، فـ « لسياق الحَال دور حاسم في تأويلها، وتحديد دلالتها وضبط معانيها. » [٦] ومن أمثلة الإحالة الضميرية الخارجية في القرآن الكريم، الإحالة إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فهو المخاطب الأول بالقرآن، ولذلك فإنَّ الضمائر التي تحيل إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – كلها خارجية؛ ذلك لعدم ذكره صراحة في النص، فالمَرْجعية الخارجية تكون للذي لم يَجْرِ له ذكر في النص، وإنما الذى يُحدد مَرْجعية الإحالة هنا سياق الحال.

والإحالة الضميرية الخارجية لَهَا عَلاقة بالمحيط الخارجي، أو المَقام التَّدَاولي المحيط بالنص، فالضمائر « تتغير بتغير المقام فى زمان ومكان ما بين المتخاطبين، أى أنها خاضعة لعوامل تداولية، مرتبطة بالاستعمال أثناء الأداء الفعلى فى مقام معين، له من العلاقات ما يجعلها معينة ولها دلالة، سواء داخل الخطاب أو خارجه.» [٧].

(١) البحر المحيط، لأبى حيان ٢٥٤/٤.
(٢) انظر: أسماء الإشارة في القرآن الكريم (دراسة تأويلية)، لعمر محمد عوني النعيمي، ص ٥٠، ٥١، ٥٢.
(٣) الأحاديث القدسية دراسة لغوية في ضوء نظرية نحو النص، للدكتور بخيت فوزي جاب الله، ص ١١٠.
(٤) القرائن العلائقية وأثرها في الاتساق (سورة الأنعام أنموذجا)، لسليمان بوراس، ص ١٧.
(٥) الضمير فى اللغة العربية هو نموذجًا، للدكتور محمد ضامر، ص ١٤٩.
(٦) نحو نظرية عربية للإحالة الضميرية: دراسة تأصيلية، لميلود نزار، ص ٥.
(٧) تداولية المكون الخطابى فى السرد الأدبى، لكاهنة دحمون، ص ١٤٧، ١٤٨.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ (١)

اختلف المفسرون في ضمير المنصوبِ في ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾ علامَ يعود، على قولين:

- القول الأول: الضميرُ عائدٌ على [الزَّلْزَلَةِ] أي: يوم ترونَ زَلزَلةِ السَّاعَةِ: وقد اختار طائفة من المفسرين هذا الرأى، منهم: " الماوردى " الذى قال: « ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾ يَعْنى زلزلة الساعة. » (٢) و" ابن الجَوْزى " فى قوله: « قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾: يعنى الزلزلة. » (٣) واختاره أيضًا " فخر الدين الرازى" فى قوله: « والأقرب رجوعه إلى الزلزلة؛ لأن مشاهدتها هى التى توجب الخوف الشديد.»(٤)

واختاره كذلك " القرطبى " فى قوله: « قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾ الهاء فى ﴿ تَرَوۡنَهَآ ﴾ عائدة عند الجمهور على الزلزلة، ويقوى هذا قوله عز وجل: ﴿ تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا ﴾. والرضاع والحمل إنما هو فى الدنيا. » (٥)

واختاره " أبو حيان " وفى هذا يقول: « والظاهر: أن الضمير المنصوب فى ﴿ تَرَوۡنَهَآ ﴾ عائد على الزلزلة؛ لأنها المحدَّث عنها، ويدل على ذلك وجود ذهول المرضعة، ووضع الحمل، هذا إذا أريد الحقيقة، وهى الأصل، ويكون ذلك فى الدنيا. » (٦) واختار هذا الرأى كذلك " السمين الحلبى " فى قوله: « قوله: ﴿ تَرَوۡنَهَآ ﴾ فى هذا الضمير قولان، أظهرهما: أنَّه ضمير الزلزلة؛ لأنَّها المتحدَّث عنها، ويؤيده أيضًا قوله: تذهل كل مرضعة. والثانى: أنه ضمير الساعة. فعلى الأول يكون الذهول والوضع حقيقة؛ لأنه فى الدنيا، وعلى الثانى يكون على سبيل التعظيم والتهويل، وأنها بهذه الحيثية، إذ المراد بالساعة القيامة. » (٧)

- القول الثانى: أنَّ الضميرَ عائدٌ على السَّاعةِ، ويترتب على هذا القول أن يكون الذهول والوضع مجازًا؛ لأنَّ يوم القيامة لا حمل فيه ولا إرضاع. وهذا الرأى اختاره " الثعلبي "، الذى قال: « ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾: يعنى الساعة. » (٨) واختاره كذلك " البغوي "، فقال: « ﴿ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا ﴾: يعنى الساعة، وقيل: الزلزلة.» (٩)

وتأسيسًا على ما سبق، فإنَّ قرائن المقام [سياق الحال] المتمثلة فى ذهول المرضعة، وَوَضْع الحمل أسهمت فى تحديد مَرْجعية الضمير فى الآية الكريمة السابقة، ويبدو لى أنَّ القول الأوّل هو الصحيح؛

(١) سورة الحج: ٢٢/١، ٢.
(٢) النكت والعيون، للإمام الماوردى ٦/٤.
(٣) زاد المسير، لابن الجوزى، ص ٩٤٨.
(٤) مفاتيح الغيب، للرازى ٥/٢٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبى ٣١٠/١٤.
(٦) البحر المحيط، لأبى حيان ٣٢٤/٦.
(٧) الدر المصون، للسمين الحلبى ٢٢٢/٨.
(٨) تفسير الكشف والبيان، للثعلبى ٦/٧.
(٩) معالم التنزيل، للبغوى، ص ٨٥٧.

لأنَّ الزلزلة هي المُتحدَّثُ عنها، وليس السّاعة، والخوف يكون منها، وكذلك لأنَّ الذهول والوضع حقيقةٌ، وليس مجازًا؛ لأنَّه في الدنيا « والحملُ على الحقيقةِ أولى من الحملِ على المجاز. » (١)

رابعًا: تحقيق التماسك النصي:

تُسهِمُ العناصر الإشارية – وخاصة الضمائر – فِي عدم التكرار بين الأسماء السابقة؛ فتعمل بذلك على الاتساق، ومن ثمَّ أكَّد علماء النص على أهمية الضمير؛ لإحالته إلى عناصر سبق ذكرها في النص. (٢) فى حين تُحَقِقُ مَرْجعية تلك العناصر الإشارية الربط بين أجزاء النص، إذا كانت موزعة توزيعًا مناسبًا لطبيعة الخطاب، ومناسبًا للموقف، ويترتب على ذلك تحقق التماسك النصى، الذى ينتج عنه التأثير فى المتلقى، وقبوله للنص/الخطاب، ومن ثمَّ فإنَّ « عملية الاتصال اللغوى تنجح نجاحًا كبيرًا فى تحقيق رسالتها، وغرضها الأصيل. » (٣)

وتُعد العناصر الإشارية من الوسائل التي تحقق التماسك الداخلي والخارجي (٤) إذ تعمل على انجدال النسيج النصي وَتَشَابُك عَنَاصره، وهو مَا أدركه القدماء، فقد « تحدثوا عن الدور الحاسم الذي تؤديه في شد البني النصية الصغرى المتفرعة عن البني النصية الكبرى، ووصلها بها في نص ما حيث تنسج الضمائر خُيُوطًا على امتداد الفضاء النصي، ضامنة استمرارية الكلام على المستوى التراكبي، مختصرة العناصر الإشارية بتعويضها وامتصاصها. » (٥)

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (٦) فقد اختلف المفسرون علام يعود الضمير فى يستعجلوه، على الأمر الذى هو المضاف، أم أم على الله سبحانه وتعالى؟ وكان لهم فى ذلك قولان:

- القول الأول: الضميرُ عائدٌ على [الأمر] أي: أتى أمر الله، فلا تستعجلوا الأمر الذى مِنْ الله سبحانه وتعالى. يرى " أبو حيان " أنَّ الضمير يعود على الأمر، لأنه هو المحدث عنه « وقيل يعود على الله، أى فلا تستعجلوه بالعذاب، أو بإتيان يوم القيامة. » (٧) واختار هذا الرأى " أبو البقاء العكبرى "، فقال: « والهاء فى ﴿ تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ تعَوْد على الأمر، وقيل على الله.»(٨)

ورَجَّحَ هذا الرأى " السمين الحلبى "، و" الألوسى "، يقول " السمين الحلبى ": « قوله: ﴿ تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ فى الضمير المنصوب وجهان، أظهرهما: أنه للأمر، فإنه المحدَّث عنه. والثانى أنه لله، أى: فلا تستعجلوا عذابه. » (٩) ويقول " الألوسى ":« والضمير المنصوب فى ﴿ تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ على ما هو الظاهر عائد على

(١) عَوْد الضمير وأثره في توجيه المعنى في القرآن الكريم، لعبدالله راجحى محمد، ص ٦١.
(٢) انظر: التماسك النصى فى سورة مريم، دراسة وصفية تحليلية، لمحمد محمود فراج، ص ١١٤.
(٣) العناصر المَرْجعية (الضميرية) فى سورة الكهف، دراسة نصية وظيفية، لعبد المهدى الجراح، ص٥٣٩.
(٤) انظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، للدكتور صبحي إبراهيم الفقى ١٦١/١.
(٥) نحو نظرية عربية للإحالة الضميرية: دراسة تأصيلية، لميلود نزار، ص ٩.
(٦) سورة النحل: ١/١٦.
(٧) البحر المحيط، لأبى حيان ٤٥٩/٥.
(٨) التبيان فى إعراب القرآن، للعكبرى ٧٨٨/٢.
(٩) الدر المصون، للسمين الحلبى ١٨٧/٧.

الأمر لأنه هو المحدث عنه، وقيل يعود على الله سبحانه أى فلا تستعجلوا الله تعالى بالعذاب، أو بإتيان يوم القيامة.. وهو خلاف الظاهر. » [١]

- القول الآخر: الضميرُ عائدٌ على الله – سبحانه وتعالى – والتقدير: فلا تستعجلوا الله عذابه، أو أمره. وهذا الرأى نقله " أبو البقاء " [٢] " أبو حيان " [٣] و"السمين الحلبي" [٤] و"الآلوسي" [٥] ولكن الراجح عندهم هو الرأى الأول، فقد رَجَّحَوا عَوْد الضمير على المضافِ بقرينةٍ ما؛ لأنّ المضافَ هو المتحدَّثُ عَنْه، فقد تقدم على الضمير اسمان متضايفان، ولم يكن هناك دليل يجعل الضمير للأقرب، فيكون الضمير عائدًا على المضاف؛ لأنّه المحدث عنه في الأصْل. قال " الزركشى ": « الأصلُ في الضَّمير عَوْدُهُ إلى أقربِ مذكورٍ، ولنا أصل آخر، وهو أنّه إذا جاء مضاف ومضاف إليه، وذُكِرَ بعدهما ضميرٌ، عاد إلى المضاف؛ لأنّه المتحدَّث عنه دون المضاف إليه، نحو: [لقيت غلامَ زيدٍ، فأكرمْتُهُ]. فالضمير للغلام. » [٦]

والتماسك الدلالى للآية الكريمة، يقتضى تَرْجيح الرأى الأول، وذلك لاتصال المعنى واستمراره، أما الرأى الثانى والذى فيه عَوْد الضمير لله تعالى، ففيه انقطاع للمعنى، ويحتاج إلى تقدير محذوف، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مِّما يحتاج إليه.

الخاتمة:

تضطلع العناصر الإشارية فى الخطاب بعدة وظائف، تسهم فى تحقيق الربط المحدد بالمقصدية السياقية؛ وتسهم كذلك فى تعزيز بنية التعدد المَرْجعى، وذلك فى العناصر التى تحتمل تعدد المرجع، ومن ثم تحيل إلى أكثر من معنى، وأيضًا توجيه الخطاب نحو سياق الحال [المقام]، فكثير من تلك العناصر الإشارية لا تنكشف دلالتها إلا بربطها بسياق الحال، فهذه العناصر الإشارية يرتبط تفسيرها بسياق ورودها، وأخيرًا تقوم العناصر الإشارية بوظيفة مهمة هى تحقيق التماسك النصى من خلال شد أجزاء النص، عن طريق الإحالة إلى مرجعية الضمائر، وأسماء الإشارة.

وقد عرض هذا البحث الوظائف التداولية للعناصر الإشارية فى البحر المحيط، من خلال معالجة أبى حيان لدلالة هذه العناصر الإشارية فى سياق تحليله النحوى للنص القرآنى، فقد وَضَّح " أبو حيان " كثيرًا من هذه العناصر الإشارية فى النص القرآنى، فى إطار الاستعمال..

(١) روح المعانى للآلوسى ٩٠/١٤.
(٢) التبيان فى إعراب القرآن، للعكبرى ٧٨٨/٢.
(٣) البحر المحيط، لأبى حيان ٤٥٩/٥.
(٤) الدر المصون، للسمين الحلبى ١٨٧/٧.
(٥) روح المعانى للآلوسى ٩٠/١٤.
(٦) البرهان، للزركشى ٣٩/٤.

- **النتائج:**

- **وجود خصائص محددة لكل خطاب، فالخطاب القرآنى له خصوصية تميزه، وله مقامه الذى يناسبه، وتبعًا لذلك تتحدد إشارياته التى تناسبه.**
- **الكشف عن الوظيفة الاستعمالية للعناصر الإشارية فى التحليل النحوى فى البحر المحيط، فى إطار أداء الوظيفة التواصلية المتمثلة فى التعبير عن الأغراض، والمقاصد لتوخى إفادة السامعين.**
- **توجيه " أبى حيان " للعناصر الإشارية فى النص القرآنى توجيهًا صحيحًا، معتمدًا فى ذلك على السياق المقامى المتمثل فى سبب نزول الآية، والذى يعد قرينة مانعة من الخطأ.**
- **توضيح " أبى حيان " للوظيفة النحوية للعناصر الإشارية فى النص القرآنى، وكَشْفه عن المعنى فى السياق؛ لأن الكشف عن وظيفة العناصر الإشارية فى النص القرآنى غير كافية، فالمتلقى يحتاج إلى بيان الوظيفة والمعنى فى السياق.**

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

١. البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيَّان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ، دراسة وتحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ على محمد معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

ثانيًا: المراجع:

٢. الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، للدكتورة نادية رمضان النجار، مؤسسة حورس الدولية للنشر، ٢٠١٣م.
٣. الأثر العقدى فى تعدد التوجيه الإعرابى لآيات القرآن الكريم – جمعًا ودراسة – للدكتور محمد بن عبدالله بن حمد السيف، دار التدمرية، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
٤. الأحاديث القدسية دراسة لغوية نصية في ضوء نحو النص، للدكتور بخيت فوزي جاب الله، دكتوراه، مخطوطة، كلية الآداب، جامعة سوهاج، ١٤٣٠- ٢٠٠٩.
٥. الإحالة فى ضوء لسانيات النص وعلم التفسير من خلال تفسير التحرير والتنوير، ماجستير، للزهرة توهامى، المركز الجامعى أكلى محند أولحاج – البويرة، معهد اللغات والآداب، ٢٠١٠م – ٢٠١١م.
٦. ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبى حيان الأندلسى (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: الدكتور رجب عثمان محمد، والدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجى بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٧. أسماء الإشارة في القرآن الكريم (دراسة تأويلية)، دكتوراة، للدكتور عمر محمد عوني النعيمي، كلية التربية- جامعة الموصل، ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣ م.
٨. الأعلام، لخير الدين الزركلى، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة – مايو ٢٠٠٢ م.
٩. أعيان العصر وأعوان النصر، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، حققه الدكتور على أبو زيد، الدكتور نبيل أو عمشة، الدكتور محمد معد، الدكتور محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، دار الفكر بدمشق.

١٠. أنماط الإشارة ودلالة الوظيفة، دراسة نصية فى الفصحى المعاصرة " بطلة كربلاء نموذجًا "، للدكتور محمد عبد الرحمن محمد، بحث منشور فى مجلة علوم اللغة، المجلد الخامس، العدد الثالث ٢٠٠٢م. دار غريب للطباعة والنشر.
١١. بحوث فى أصول التفسير ومناهجه، للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومى، مكتبة التوبة، بدون تاريخ.
١٢. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، بدون تاريخ.
١٣. بغية الوعاة فى طبقات اللغوين والنحاة للحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى (٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، دار الفكر.
١٤. البنية الدلالية والإحالية للضمائر، للدكتور أشرف عبد البديع عبد الكريم، بحث منشور في مجلة علوم اللغة، المجلد التاسع، العدد الثالث ٢٠٠٦م.
١٥. التبيان فى إعراب القرآن، لأبى البقاء عبدالله بن الحسين العكبرى (ت ٦١٦هـ)، تحقيق: على محمد البجاوى، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه، بدون تاريخ.
١٦. تحليل الخطاب فى ضوء نظرية أحداث اللغة، دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجى فى الخطاب النسوى فى القرآن الكريم، للدكتور محمود عكاشة، الطبعة الأولى – القاهرة؛ دار النشر للجامعات ٢٠١٣م.
١٧. التداولية، لجورج يول، ترجمة وتحقيق: قصى العتابى، الدار العربية للعلوم ناشرون، بدون تاريخ.
١٨. تداولية المكون الخطابى فى السرد الأدبى، لكاهنة دحمون، بحث منشور فى مجلة الخطاب التى تصدر عن مخبر تحليل الخطاب التابع لجامعة مولود معمرى – الجزائر، العدد الثالث عشر جانفى ٢٠١٣م، دار الأمل للطباعة والنشر.
١٩. التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى الكلبى، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٢٠. تفسير أبو السعود المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم)، لقاضى القضاة أبى السعود بن محمد العمادى الحنفي (٩٠٠هـ - ٩٨٢هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض الحديثة، بالرياض، بدون تاريخ.
٢١. تفسير التحرير والتنوير، للإمام محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس ١٨٨٤م.
٢٢. تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر ٥٤٤-٦٠٤هـ، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ -١٩٨١م.
٢٣. تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للعلامة جار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى(٤٦٧- ٥٣٨هـ)، الجزء الرابع، تحقيق وتعليق: الشيخ: عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ على محمد معوض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٢٤. تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن على بن محمد الشوكانى، اعتنى به: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.
٢٥. التفسير ومناهج المفسرين، للدكتور جمال محمود الهوبى، د. عصام العبد زهد، دار المقداد، غزة – الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٦. التماسك النصى فى سورة مريم، لمحمد محمود فراج، رسالة ماجستير، جامعة سوهاج – كلية الآداب، ٢٠١٢م.
٢٧. جامع البيان في تأويل القرآن، للطبرى، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٢٨. الجامع لإحكام القرآن الكريم، لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٢٩. دراسة فى قواعد النحو العربى فى ضوء علم اللغة الحديث، للأستاذ الدكتور حازم على كمال الدين، مكتبة الآداب، ١٩٩٧م.
٣٠. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة – للإمام الحجة الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني الشافعي، تصحيح الدكتور سالم الكرنكوى، الناشر دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد – ١٣٤٩هـ.
٣١. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٦هـ، تحقيق: الدكتور: أحمد محمد الخراط، دار القلم، بدون تاريخ.
٣٢. دور الروابط فى اتساق وانسجام الحديث القدسى، ماجستير، لمحمد عرباوى، جامعة الحاج لخضر – باتنة –٢٠١٠م، ٢٠١١م.
٣٣. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، للعلامة الآلوسى البغدادي ت ١٢٧٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
٣٤. زاد المسير في علم التفسير، للإمام أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى (٥٠٨ – ٥٩٧هـ)، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٣٥. الضمير فى اللغة العربية (هو) نموذجًا، للدكتور محمد ضامر، بحث منشور ضمن سلسلة ندوات ومناظرات: اللسانيات المقارنة واللغات فى المغرب، الناشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط – مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٣٦. طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى (٧٢٧ – ٧٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناحى، عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، مطبعة عيسى البابى الحلبى.
٣٧. طبقات المفسرين، لمحمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداوودي المالكي (المتوفى: ٩٤٥هـ)، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية – بيروت .
٣٨. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، للدكتور صبحي إبراهيم الفقى، دار قباء، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.
٣٩. العناصر المرجعية (الضميرية) فى سورة الكهف، دراسة نصية وظيفية، لعبد المهدى الجراح، وآخرون، بحث منشور فى مجلة دراسات، التى تصدر عن عمادة البحث العلمى، بالجامعة الأردنية، كلية العلوم والآداب، قسم العلوم الإنسانية، المجلد ٣٥، العدد ٣، عام ٢٠٠٨م.
٤٠. عود الضمير وأثره في توجيه المعنى في القرآن الكريم (دراسة نحْوية)، ماجستير، لعبد الله راجحي محمد غانم – جامعة عدن – كلية التربية – عدن– قسم اللغة العربية - ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

٤١. فعل القول من الذاتية فى اللغة، تأليف: ك. أوريكيونى، ترجمة: للدكتور محمد نظيف، دار أفريقيا الشرق ٢٠٠٧م.
٤٢. القرائن النحوية اللفظية والاتساق النصى، دكتوراة، لسليمان بوراس، جامعة الحاج لخضر – باتنة، ١٤٣٥هـ – ٢٠١٤م.
٤٣. قرينة المطابقة فى النحو العربى وتطبيقها فى القرآن الكريم – دراسة نظرية تطبيقية – دكتوراة، للدكتور محمد بن صالح، جامعة الحاج لخضر – باتنة، ٢٠٠٩م– ٢٠١٠م.
٤٤. القرائن العلائقية وأثرها فى الاتساق " سورة الأنعام أنموذجًا " دراسة وصفية إحصائية تحليلية، ماجستير، لسليمان بوراس، جامعة الحاج لخضر – باتنة، ٢٠٠٨م – ٢٠٠٩م.
٤٥. الكشف والبيان المعروف بتفسير الثعلبي، للإمام أبو إسحاق أحمد المعروف بالثعلبي (ت٤٢٧هـ)، دراسة وتحقيق: الإمام أبى محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.
٤٦. اللباب في علوم الكتاب، للإمام المفسر أبى حفص عمر بن على ابن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ: على محمد معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٤٧. اللغة والحجاج، للدكتور أبو بكر العزاوى، دار الأحمدية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م.
٤٨. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، لأبى محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ) حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م.
٤٩. نحو نظرية عربية للإحالة الضميرية: دراسة تأصيلية تداولية، أ. ميلود نزار، مجلة علوم إنسانية، العدد ٤٢، السنة السابعة.
٥٠. النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، للدكتور محمود عكاشة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، ٢٠١٣م.
٥١. نكت الهميان فى نكت العميان، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، وقف على طبعه: الأستاذ أحمد زكى بك، بتاريخ ١٣٢٩هـ – ١٩١١م، بالمطبعة الجمالية بمصر، ودار المدينة.
٥٢. النكت والعيون، أو تفسير الماوردى، لأبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى البصري، مراجعة وتعليق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
٥٣. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبى الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤م.